ABSAL'S CHRONICLES I

سجلات أبسل

محمد تامر

سجلات أبسل ١

في أثر القطرب

تأليف: محمد تامر

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله

لله الشكر والحمد والفضل على سائر نعمه عموماً، وعلى نعمة إلهامه لي بإتمام هذا العمل الأدبي خصوصاً، وهو الموفق والمستعان. اللهم انصر إخواننا في فلسطين، وثبت أقدامهم وانصرهم على أعدائهم وخاذليهم. اللهم آمين.

مقدمة الراوي

مرحباً بك عزيزي، سواء أَكُنتَ قارئاً أم مستمعاً فَلَدَيَّ هنا قصة جديدة يود خيالي الواسع أن يثرثر معك بشأنها، وقد وكلني بأن أقصها عليك لذا استمع إلي ولا تحرجني أمامه!

أعلم أنك تحب تلك الحكايات ذات التفاصيل المتعلقة بالأزمان والأماكن، لكن حكايتنا تلك - كما عَوَّدتُك - لا زمان محدد لها أو مكان، ولكن دعنا نقل أن خلفيتها تحمل عبق هذه الأيام القديمة التي نسعد ونتشوق دائماً لسماع الأساطير والحكايات عنها، أيام السيوف والخيول...وسنضيف إلى هذا الخليط عناصر الظواهر الخارقة للطبيعة التي لا يقاومها أحد، إضافة إلى بعض التفاصيل الفلسفية التي أصبحت الموضة أن تزخر الحكايات بها، ثم نضع كل هذا في قالب إسلامي محبب إلى قلوبنا...ما رأيك؟!

تبدو لي سعيداً، وتبدو عليك أمارات الحماس؛ وإذن قل بسم الله، وصَلِّ على نبيه، ولنبدأ حكايتنا يا عزيزي!

إن بطلنا هذه المرة خاض عدة مغامرات مثيرة للاهتمام، وقد قرر أن يدونها بقدر ما تسمح له ذاكرته في سجلاته، وما سيحدث أنني سأحكي لك بنفسي ما قد كتبه بطلنا هذا فيها.

إنه "أبسل"، أبسل بسلاء أيامه وموطنه، وهذه - يا رفيقي - هي سجلاته التي لن يمحوها الزمن بسهولة من عقلك بعد أن أتلو عليك ما فيها!

تنويه

هذه السلسلة للجميع كباراً وصغاراً؛ فلم أكتبها لتكون عميقة بشكل يعيق فهمها أو بتفاصيل مرعبة زيادة عن اللازم تثير هلع البعض إن قرأها، بل هي مجرد محاولة متواضعة جداً لصناعة حبكة فانتازيا إسلامية لا ينبغي أن تتوقع منها طفرة أدبية أو أحداثاً تؤثر فيك بشكل كبير لأنني أنا نفسي لا أتوقع ذلك؛ فهدفي الأول والوحيد من كتابتها كما قلت أن أخلق سلسلة قصصية بروح إسلامية كوننا هذه الأيام نحتاج حقاً إلى مثل هذه الروح والأجواء في كل ما حولنا؛ سواء في حياتنا اليومية أو قراءاتنا لكتب التراث أو غير ذلك؛ حتى لا تطغى الرفاهيات الغربية تماماً علينا وتنسينا هويتنا وانتمائنا الحقيقي؛ ولذا فيمكنكم أيضاً اعتبارها مشروعاً يحمل اسمي ويهدف إلى توفير مثل هذه الأجواء في عمل أدبي، وآمل أيضاً أن يحاول كل منكم توفير هذه الأجواء في عمل من صنع يديه حتى لو في مجال آخر.

كلنا نستطيع النصرة، ولو بأبسط الأفعال والأقوال، المهم وحسب أن يشعر كل منا أنه يتشرف بفعل هذا، وألا ينتظر من فعله هذا أن يغير العالم بل ينتظر أن يرفعه درجات عند الله باحتساب نيته، وأن يغيره هو أولاً.

اللهم ردنا إليك رداً جميلاً.

١

الانتظار...

إنه ليس عادياً أو سهلاً على الإطلاق، خاصة إذا كنت تترقب أنباءً تشعر في قرارة نفسك أنها لن تسرك أبداً، بل ربما تكون أليمة بقدر لا يمكنك احتماله!

على مجلس عربي بسيط يجلس رجل وامرأته، بجانب أحد جدران منزلهم العتيقة، ساخطين على سحر الانتظار الذي يجعله يعبث بالزمن معذباً قلوب المنتظرين؛ فيحيل الثواني إلى دقائق، والدقائق إلى ساعات، والساعات مباشرة إلى أيام وأعوام!

يجلسان بانتظار نبأ يشعران بداخلهما أنه سيكون موجعاً لهما إلى أقصى حد، وكلما حاولا التهوين على نفسيهما التقت عيونهما بباب غرفة ولديهما؛ فبكيا أكثر من ذي قبل وأصبحت دموعهما أشد حرارة، وأصبح دعاؤهما لله أشد توسلاً ومذلة!

وأخيراً، رفع الانتظار رايته البيضاء، وصدر صرير من باب غرفة ولديهما قبل أن ينفتح عن آخره ليخرج منه شاب طويل القامة وسيم الملامح، ذو ذقن وشارب خفيفين، يرتدي ملابس ثقيلة رمادية اللون مزينة بقطع معدنية واقية في عدة مواضع منها، ومحاطة بحرملة سوداء

أضافت إلى مظهره لمسة من المهابة والقدر الرفيع، حاملاً سيفاً في غمده بالقرب من حزامه يجعل الناظر إليه يعلم أنه لا يمزح أو يلهو بهذه الهيئة القاتمة على الإطلاق!

وما إن تقدم صاحبنا هذا بضع خطوات خارج الغرفة حتى قام الوالدان من مجلسهما، وتحدث الأب من بين دموعه بلهجة خائفة يتخللها بعض الأمل: "ما أحوال الفتى يا سيدي أبسل؟! هل رحل الجن عنه؟! أهو بخ..."

لم يدعه أبسل يكمل جملته، وقطع حديثه قائلاً: "إنه مُدَّعٍ!"

فتح الوالدان عيونهما عن آخرهما وتبادلا النظرات المتعجبة، وشهقت المرأة قائلة: "يا ويلي! لقد كان يكذب!"

وتحولت ملامح الرجل فجأة واحمر وجهه من الغضب وهو يصيح: "هذا الشيطان الصغير! سأؤدبه!"

وهنا قال أبسل بنبرة عصبية حادة: "إنني لم أكمل كلامي بعد!"

نظر الوالدان إليه متسائلين، فأكمل: "لو أن الفاروق عمر كان حياً وسمع بحادثتك لقال لك أنك قد عققت ولدك، حتى ولو كان سيعاقب الفتى أيضاً على كذبته! إن ابنك لا يحبك، وأنت

تعلم أن تربيتك ومعاملتك له لا تشجعانه على أن يفعل، إنك تخيفه بما تفعل معه؛ بقسوتك وغلظتك وتحقيرك من شأنه دائماً؛ وهذا وَلَّدَ بداخله رغبة في الانتقام منك، ولم يهده عقله إلى ما هو أفضل من أن يخيفك كما جعلته أنت يخاف الحياة، ويخاف أن يرى نفسه صالحاً لها!"

=ما هذا الهراء الذي تتفوه به؟ أتقول لي أنه علي أن أدخل وأعتذر منه مثلاً بعد فعلته تلك؟!

-أنا لا أقول شيئاً على الإطلاق يا سيدي، كل الأمر أنك طلبت مشورتي وهذه هي، و...

=كم أجرك؟!

هنا احمر وجه أبسل من الغضب، وفتح عينيه عن أخرهما وهو يقول: "لا أريد منك شيئاً!"

ثم أردف وهو يتجه نحو باب الخروج: "ولا تطلب مني شيئاً ثانية!"

وهنا رد الأب عليه بتحدٍ: "كيف تجرؤ أن تكلمني هكذا؟! أنت مجرد ساحر ملعون! ما كنت لأطلب قدومك لو أنني لم أكن بحاجة إليك، وينبغي أن تكون ممتناً أنني عاملتك بأكثر مما تستحق!"

أغمض أبسل عينيه لثوان وعض على يده ليكتم غضبه وحزنه، وسمع عبارات الأم اللائمة زوجها على ما قاله، لكنه لم يبق لوقت أطول وآثر الخروج وعدم استكمال هذا الحديث الذي يؤذي نفسه وكرامته!

ما إن وطئت قدماه الشوارع حتى تنفس الصعداء وهو يتأمل البلدة من حوله، بمعمار منازلها الإسلامي المميز، ومساجدها البهية ذات المآذن الطويلة؛ فهدأت نفسه، وحمد الله على نعمه ودعاه أن يحفظ الفتى من الشرور، وأن يغفر له ولوالديه ويهديهم جميعاً، وأسلم أمره كله لله كما اعتاد طوال حياته ثم شرع يتخذ خطواته نحو منزله، لكن خطواته توقفت إثر سماعه صوتاً محبباً إلى قلبه يناديه باسمه، ويدنو صاحبه مسرعاً منه!

التفت أبسل إلى مصدر الصوت وقد زينت ابتسامته الواسعة محياه وهو ينظر إلى الصبي القادم إليه، واتسعت ابتسامته حتى كشفت عن أسنانه وهو يحييه: "حسناً حسناً، إن لم يكن هذا هو أفضل طلابي وأقربهم مني مجلساً ومكانة! كيف حالك يا ثقيف؟!"

رد ثقيف مبتسماً: "بخير والحمد لله، وماذا عنك سيدى؟"

-الحمد لله يا فتى، الحمد لله!

=تبدو أنيقاً اليوم بهذه القطع المعدنية الجديدة التي تزين واقي ذراعك!

-كم أحب نباهتك تلك يا ثقيف! أشكرك على هذا الإطراء!

=الشكر لله، إذن هل سنجتمع في ميعادنا كما اتفقنا جميعاً المرة الفائتة؟ أم أن خططك قد تغيرت؟

-كلا، لم تتغير، سنجتمع بإذن الله، وبمناسبة هذا...أما زلت تذكر ما تدارسناه في لقائنا السابق؟ عن سورة العاديات؟

=بالطبع، لقد وجهت تركيزنا جميعاً نحو بلاغتها، وقلت لنا أن الله عز وجل ضرب لنا مثلاً بالخيل التي تحفظ جميل صاحبها وراعيها، وتطيعه؛ ليقارن بينها وبين الإنسان الذي يستكبر

عن شكر نعمة خلقه حتى، وطرحت سؤالاً استنكارياً رائعاً حقاً يا سيدي: هل الخيول قد تكون أشرف من الإنسان العاقل؟!

-أحسنت يا بني، يعلم الله كم أنا فخور بك!

=ويعلم أيضاً كم أحترمك يا سيدي، وإن كنت أتمنى أن يحترمك الجميع ويعرفوا قدرك مثلي ومثل رفاقي، وخاصة والداي!

-...لا زال والدك يكرر أقاويله بشأني هو الآخر؟!

=نعم سيدي، ويكرر على مسامعي أن أحذر منك، وأنه يرسلني إليك لأنك أفضل عالم ومعلم للقرآن الكريم في البلدة وحسب!

-...يظنوني ساحراً!

=وأعلم أن هذا يضايقك ويحزنك يا سيدي، لكنني لا أريده أن يفعل؛ فأنت قدوة لي ولرفاقي ولا نود أن نراك منزعجاً أبداً! سيتغير هذا كله يوماً ما بالتأكيد!

-لا أدري يا بني، إنني أثق في الله وحسب...

وفجأة، قطع حديثهما صوت جهوري ينادى على أبسل بينما يهرول صاحبه متوجهاً نحوه، وعندما أصبح على مقربة منه قال وقد تملكه الخوف: "النجدة يا سيد أبسل...إنه الذئب!"

ازدرد أبسل لعابه، وتراقصت في ذهنه بعض الأفكار التي سرعان ما كافح لإيقافها، ثم عقد حاجبيه وأشار لثقيف مبتسماً أن يغادر في الوقت الراهن؛ فبادله الفتى الابتسامة وابتعد بهدوء ليظل أبسل والرجل وحدهما.

قال أبسل مازحاً محاولاً أن يُذهِب القلق عنه وعن الرجل: "إذن كنت تقول...آه، ذئب! حسناً يا سيد هجرس، ربما عليك أيضاً أن تهذب شعرك الكثيف هذا قبل أن تأتي على ذكر ذئب!"

نظر إليه هجرس بعينين مفتوحتين عن آخرهما راسمتين ملامح الفزع على وجهه ورد قائلاً: "ليس هذا وقت مزاح أرجوك! أنا لا أحدثك عن ذئب عادي!"

-إذن أهو ذئب مجنح أم ماذا؟!

=كلا يا سيد أبسل! إنني أحدثك عن...مستذئب!

-...ليتك رأيت ذئباً مجنحاً بالفعل!

=اللعنة يا سيد أبسل! أتوسل إليك أن تصدقني! أقسم أنني رأيته يقفز لمسافات عالية وطويلة و...ليس هنالك من أحكي له أمراً كهذا سواك يا سيدي! أرجوك أن تستمع إلي!

-...أكمل يا سيد هجرس، أكمل!

٢

إن شخصاً مثل "أبسل" رغم أنه يلائمه الإيمان بأمور غريبة مثل المستذئبين إلا أنه لا يفعل؛ فهو مع إيمانه بالغيب وعوالم الجان والشياطين كونه مسلماً ويجاهد في التزامه بدينه وكونه يجابه تلك المخاطر في عمله كطارد للجان، إلا أنه لا يؤمن حقاً بأمور مبالغ فيها كالوحوش الأسطورية والمستذئبين وما إلى ذلك؛ فكيف لشخص من مجرد عضة ذئب أن تتحول معالم بدنه وبنيته بشكل كامل؟ هذا منطق أساطير واهٍ يرفضه أبسل رفضاً قاطعاً.

وهكذا بدأ أبسل يفعل ما يفعله في مثل هذه المواقف؛ فشرع يتجول في شوارع القرية ويسأل أناساً يعلم بعضهم ويجهل أكثرهم ما إن كانوا قد رأوا "مستذئباً" في الجوار، وكما المعتاد تنوعت ردود الناس على سؤاله...

فمنهم من استنكر السؤال ساخراً: "نعم بالطبع، وأنا مصاص الدماء الذي يلزمك لتكمل حكايتك الخزعبلية تلك!"

ومنهم من يبدو عليه الخوف قائلاً: "ابتعد أيها الساحر! أياً كان ما سترتكبه فابق بعيداً به عني!"

ومنهم من يجيبه بأدب داعياً له: "كلا يا سيدي أبسل، لم أر شيئاً عجيباً كهذا قط، لكني أصدقك وأدعو الله أن ينصرك إن كنت صادقاً." وهم قلة بالطبع!

وبعد أن أقام صلاة العشاء في مسجد القرية، عاد أبسل إلى بيته وهو يشعر ببعض الضيق لأنه لم يجد دليلاً مفيداً، وفكر أن يتجاهل حكاية الرجل الغريبة ويعتبرها ضرباً من الأوهام، لكن ضميره وشيئاً ما في نبرة صوت الرجل الخائفة وهو يقص ما رآه جعلاه يشعر أنه هنالك حقاً أمر ما!

علم أبسل أن الإفراط في التفكير والشك دون دليل لن يقوده إلى شيء؛ فآثر أن يغير الموضوع بداخل عقله ويفكر بأمر مبهج بعض الشيء ليشغله بعض الوقت، ولم يجد لهذه المهمة أفضل من التفكير في لقائه بأريام في اليوم التالي!

وأريام هي خطيبة أبسل التي يهيم بها حباً منذ رآها للمرة الأولى في ظروف لا يحب تذكرها، وهي شابة تصغره بأربعة أعوام حسناء المنظر والجوهر، رزينة العقل طليقة اللسان، وترى في أبسل معلمها وبطلها وملهمها قبل أن تراه لها حبيباً ورفيقاً، وتحترف إظهار ذلك له بأفعالها وأقوالها؛ وهو أكثر ما يجعل أبسل مجنوناً ومفتوناً بها!

وهكذا بعد أن أمضى بضع دقائق على سريره يفتن عقله بتخيلها والتفكير بها؛ غط في نوم عميق آملاً أن يحلم بها فيه!

٣

وفي اليوم التالي مع قرب موعد اللقاء؛ مَشَّطَ أبسل شعره الحريري الكثيف، وارتدى قميصاً أبيض اللون وسروالاً ذا لون أسود قاتم؛ استعداداً للقاء أريام التي أخبرته سابقاً أنها لا تحب كثيراً رؤيته بملابسه القاتمة - لسبب يعلمانه رغم أنهما لم يبوحا لبعضهما حقاً به - ورغم حبه الشديد لملابسه السوداء ذات المظهر المهيب إلا أنه لم يحب أبداً أن يرفض لأريام طلباً كما لم تفعل هي ذلك أبداً.

ثم ذهب إلى مكان اللقاء الذي اعتاداه مع اقتراب وقت الغروب؛ وهو حديقة كبيرة بهية المنظر تحيطها أسوار بيضاء وتتوسطها نافورة كبيرة، أنفق شيخ وقور نادراً ما يرى في المدينة كثيراً من ماله لتشييدها منذ بضع سنوات، وجعل دخولها بالمجان للجميع ابتغاء مرضاة الله جل وعلا؛ فكنت ترى فيها أصنافاً كثيرة من الناس مثل الشيوخ والعلماء وطلابهم يتدارسون، أو العشاق يتغازلون، أو الأطفال يلعبون، أو عابري السبيل بأشجارها الكثيفة يستظلون، وغيرهم حتى لو لم يودوا إلا أن يتمتعوا بعبير أزهارها الزكي أو يفترشوا العشب الذي يجعل الجلوس على أرضها مريحاً أكثر مما سواها.

دخل أبسل الحديقة من بوابتها الأمامية الكبيرة، وجلس تحت شجرة يتأمل الأطفال الذين كانوا يلعبون حول النافورة، ويرحلون تباعاً لأن ميعاد عودتهم إلى منازلهم قد اقترب؛ ولذا كان أبسل يختار هذا الميعاد ليقابل أرياماً فيه!

ومرت بضع دقائق وهو على هذه الحال إلى أن وصلت أريام رفقة والدها الذي استرق نظرات غاضبة إلى أبسل يعلم الثلاثة سببها، قبل أن يتركها تدنو منه ليجلسا وحديهما على مرأى منه في مقابلة الغروب البديع، ويظل هو واقفاً يراقبهما من بعيد منتظراً نهاية لقائهما.

لم يلقِ أبسل بالاً لوالدها، بل ابتسم وهو يراقبها تدنو بحيائها المعتاد منه، إلى أن افترشت الأرض بجانبه على مسافة منه تمنع تقاربهما وتلامسهما، وعندها قال أبسل بمرح مغازلاً إياها: "جلست الطَيِّبَة على الأرض الطَيِّبَة!"

ابتسمت أريام وردت دون أن تنظر إليه: "حسبك يا أبسل! انتظر حتى ألتقط أنفاسي على الأقل!"

بادلها أبسل الابتسام وهو يسألها: "وإذن ما أمر والدك الآن؟ ظننت أن فرقاً سيحدث إن تحدثتِ إليه مجدداً!"

تنهدت أريام وهي ترد وقد تبدلت ملامحها المرحة فجأة إلى ملامح حادة وجافة: "هو لن يتغير، بِتُّ أعلم ذلك، وما عدت أهتم ما إن كان سيفعل أم لا بل إني أود أن أظفر بك في نهاية المطاف بسلام وحسب!"

-وأنا أيضاً يا أريام، وعلى ذكر والدك قبل أن ننهي حديثنا عنه حتى لا نعكر صفو هذا اللقاء، ألم يسمع بحكم كونه قائد حرس المدينة عن..."مستذئب" يعبث في الجوار؟!

=مستذئب؟! ما هذا يا أبسل ظننتك لا تؤمن ب...

-كلا يا أريام، بالطبع لا أؤمن بهراء كذلك، لكن أحدهم أخبرني أنه رأى واحداً في الجوار!

=من هو؟

-...هجرس.

=البَنَّاء؟! لكنه شخص رزين على حد علمي...كيف له أن يتفوه بهذه الترهات؟!

-هذا ما يقلقني! أقول لنفسي أنه ربما قد يكون رأى ذئباً...كبيراً بعض الشيء!

=لكن الذئاب لا تُرى كثيراً في قريتنا أو على حدودها يا أبسل!

-وهذا ما يقلقني أكثر!

=...أتعلم؟ أنت حقاً أسوأ من يختار موضوعات لأحاديثه مع محبوبته!

-أوه! اعذريني يا أريام إذ أنكِ محقة جداً!

=إذن ألن تصمت؟!

-بالتأكيد سأفعل يا سيدتي، لننس هراء المستذئبين ذاك ودعيني أتأملكِ قليلاً...!

=نعم...تأملني؛ لربما أكون أنا المستذئبة!

-هه! كلا يا أريام...سأتأملكِ حقاً تأمل حامد الله على نعمته!

احمرت وجنتاها؛ فأدرك أبسل أنه أصاب هدفه وانطلق لسانه: "تبدين حقاً فاتنة اليوم بجلبابك الحريري وحجابك الزهريين، لكم أحب مظهرك في تلك الألوان الزاهية!"

=انظروا من يتحدث عن الألوان الزاهية!

-هيا الآن يا أريام، تعلمين أنني أحب ثيابي السوداء؛ لسبب ما أشعر بنفسي ووجودي فيها أكثر مما سواها!

=أعلم أنك تظن نفسك فارس ظلام هذه القرية يا أبسل، ولكن حتى الظلام يتبعه شروق!

-وهأنذا أشرق معكِ اليوم!

=هه! لن تتوقف، أعلم ذلك!

-لم أنهِ تأملي فيكِ بعد يا أريام فلا تقاطعيني!

=لا بأس، تأمل أيها الفيلسوف!

-...بعيني الريم الساحرتين هاتين، وبوجهك الخمري الذي يذهب بوعيي كلما نظرت إليه، تبدين فاتنة وبهية كأنك خرجت للحياة من إحدى أساطير الإغريق، لو رأوا حسناء مثلك لظنوها إلهة وأدرجوا عنها قصصاً في أساطيرهم تلك!

=لا تبالغ الآن يا أبسل، ولا تشبهني بشيء من هذه العقائد البالية!

-أمزح يا أريام، أمزح وأبالغ في غزلي فيكِ وأنتِ تعلمين هذا!

=...على ذكر العقائد البالية، كثيراً ما أتعجب وجودها حتى اليوم!

-ولِمَ العجب؟ كيد الشيطان وهوى النفس يمارسان دورهما الطبيعي منذ بدء الخليقة، والإنسان بارع في صنع الآلهة كبراعته في طهي الطعام؛ فهي ضرورة حياة عنده لا أكثر!

=الفتنة حقاً مرعبة، والجهل مرعب أكثر!

-{أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون}، هذه الأمور من بديهيات العالم يا أريام؛ فكيف لنا أن نميز الصالحين من الطالحين إذن؟ إن هذه الحياة كلها اختبار ولا يليق بها أن يكون الكل مسلمين وصالحين.

=إن ما يخيفني أيضاً هو أخبار أصحاب هذه العقائد، عندما يتحدثون عن معجزات وأمور خارقة تحدث لهم...أشياء من هذا القبيل، أتفهمني؟

-لا بد لها أن تحدث؛ فلو لم تحدث لعلموا أن ما يعتقدون فيه باطل، لكن الشيطان له حيله في الغواية، وأبسط مثال على ذلك أن عبدة الشيطان لهم كرامات فاسدة، أيدل هذا أنهم على حق؟!

=...أفهمك، كلامك وضح لي أموراً أظنني لم أفكر بها قبلاً.

-في خدمتك دائماً يا أميرتي!

=أنت محترف في انتهاز الفرص! وعلى أي حال أيها العاشق الولهان، الغروب لا يبدو معجباً بهذا!

نظر أبسل معها إلى الشمس فوجدها قد غربت أكثر، وهذا يعني اقتراب ميعاد صلاة المغرب ونهاية اللقاء؛ فزفر وقال بضيق: "نعم، نهاية لقاء آخر من هذه اللقاءات القصيرة التي لا تسمن ولا تغني من جوع! إن والدك يسبب لي ضيقاً يا أريام؛ فهو يبالغ في تأجيل زواجنا لأسباب سخيفة، وما عدت قادراً على احتمال نظراته وظنونه!"

=أبسل؟

-...نعم يا أريام، أنا آسف لأنني...

=كلا، لا عليك فأنا لا آبه له...فقط قم معي لأقول لك شيئاً ما قبل أن أرحل.

لقد أرسلت

وقف كلاهما بالفعل في نفس اللحظة؛ فتابعت أريام: "أنت لست محبوبي وحسب بل معلمي وبطلي...ومنقذي، ولو لم يكن غرامي بك بإرادتي لكان دَيناً علي لك أن أسخر كل شعور بالعاطفة والحب نابع من قلبي لكَ أنت، أنت من أهيم به بحريتي أو رغماً عني، وحتى إن كنت لا أبدي لك هذا كثيراً لكنك تعلم أنني أتوق لأن يجمعنا بناء واحد!"

ابتسم أبسل ابتسامة عكست سعادة عظيمة شعر بها في تلك اللحظة، وسر نفسه كثيراً حديثها، وطربت أذنه لصوتها العذب وهي تقول كلماتها الحلوة، وكأنها ازدادت في عينيه حلاوة وفتنة وجمالاً!

وضحك بخجل ثم رد بامتنان واضح: "لن أستطيع شكرك أبداً يا أريام، يا بريعة يا رائعة الحسن والجمال! والله إني لأحب فقداني وقاري أمامك وغدوي في الحب صبياً معكِ! وأحب خروجي من قتامة ردائي وحياتي لبعض الوقت بلقاكِ!

ابتسمت أريام كاشفة عن أسنانها وهي تنهي كلامها قبل أن تهم بالرحيل: "هَوِّن على نفسك يا محبوبي، سأحادثه وألح عليه وسيفعل الله لنا ما فيه الخير، علي الآن أن أرحل معه بسرعة على أن نتقابل قريباً، لا تنس أن تكاتبني لتعلمني بأخبارك، إلى اللقاء!"

راقبها أبسل وهي تبتعد رويداً رويداً إلى أن اختفت عن ناظريه مع والدها الذي لم ينظر إليه حتى وهما راحلان، ثم تحول ببصره إلى الشمس فوجدها تغرب أكثر وأكثر؛ فقال مبتسماً وهو يتأمل المنظر: "لا تحاولي أيتها الشمس الغيورة؛ ما من غروب أو شروق لكِ يمكن أن يجعلك أحسن وأجمل من أريام!"

ثم خرج من الحديقة يحث الخطى نحو مسجد قريب كي يستعد لصلاة المغرب التي كانت تقترب أكثر وأكثر.

٤

خلال تجوله في المدينة لاحظ أبسل أن الأقاويل عن المستذئب بدأت تكثر، وإن لم يكن أحد قد نعته تحديداً بهذا بل تحدث بعضهم عن رؤيتهم لذئب كثيف الشعر وغريب الصوت يجول في الغابة المحيطة بالقرية، وقال بعضهم الآخر أنهم ظنوه بشرياً خارقاً للطبيعة نظراً لحجمه الذي لم يكن ضخماً، على الأقل ليس كحجم المستذئب المعروف في الأساطير؛ وهما قرر أبسل أن يبحث مهتدياً بمعونة الله وبما جمعه من أدلة في كتبه عن وصف منطقي لهذا البشري الذي يبدو كذئب لكنه ليس كذلك!

وبعد بحث مرهق لم يجد وصفاً أقرب لما حكاه أهل القرية مما كتبه "ابن سينا" عن مرض القطرب؛ والذي من أعراضه كثافة الشعر والخوف من الضوء، ويعد هو النسخة الواقعية نوعاً ما من أسطورة المستذئب.

ولم يتعب نفسه في البحث والانتظار أكثر من ذلك بل قرر أن يذهب لمواجهة هذا القطرب بنفسه؛ فأرسل إلى أريام رسالة مع طالبه ثقيف - الذي كان يأتمنه على توصيل مثل تلك الرسائل - يُعلِمُها فيها أنه يحقق تقدماً في مسألة القطرب كما سماه لها، وأنه قد يتغيب لليلة أو اثنتين خارج القرية ويشعر بقلق دفين بداخله، وختم رسالته بأن طلب منها الدعاء له بالتوفيق والسداد، وذَكَّر ثقيف أن يحاول تسليمها الرسالة عندما يجدها وحدها أو تكون بعيدة عن والدها.

وبالفعل خرج أبسل ذات ليلة من القرية بعد صلاة المغرب، وقد جهز خيمة وزاداً معه يكفيه لليلتين على أقصى تقدير، واختار بقعة آمنة في الغابة قريبة من القرية ومليئة بالأشجار، ونصب هناك خيمته.

ومر بعض الوقت قبل أن يحين ميعاد صلاة العشاء؛ فتيمم أبسل حتى لا يستهلك كثيراً من الماء الذي معه وصلى وحده، ثم أحضر بعض الحطب وأشعل ناراً أمام الخيمة وظل جالساً أمامها يتلو آيات يحبها من القرآن الكريم لبعض الوقت، إلى أن غلبه النعاس أخيراً فنام...

وفجأة بعد مرور بضع ساعات أفزعه صوت غريب يأتي من مسافة قريبة، كأنه صوت عواء لكنه لا يشبه عواء الذئاب أو صوت صراخ لكنه لا يشبه صراخ الإنسان؛ فقام وتحسس أسلحته بسرعة ثم اقترب من مدخل الخيمة، وظل ينصت لبضع ثوان إلى هذا الصوت الغريب إلى أن شعر أنه قد بدأ يبتعد؛ فأخذ نفساً عميقاً واستجمع شجاعته ودعا الله أن يحفظه وينصره، ثم خرج وبدأ يتبع الصوت كلما ابتعد كي يصل إلى مصدره!

أخذ الصوت يزداد غرابة طوال الطريق مثيراً القلق في نفس أبسل، الذي رغم إيمانه وشجاعته العظيمين لم يكن يخجل أن يعترف لنفسه بالخوف الدفين الذي ينتابه في كل مرة يواجه في حياته أموراً عجيبة ومثيرة لا يفهمها المنطق البشري كتلك، لكنه قاوم هذا الشعور بضراوة وأسكته مراراً، وظل الحال هكذا إلى أن وصل الصوت إلى القرية!

أطلق أبسل حينها ساقيه للريح ولم يتوقف ليلتقط أنفاسه إلا عندما أصبح داخل قريته مجدداً، وهناك لم يسمع الصوت مجدداً وكأن صاحبه اختفى أو أنه كان يطارد سراباً؛ فأثار ذلك قلقه أكثر، وأخذ يتجول بحذر في الشوارع بينما الجميع نيام وهو يبحث ببصره عن...من أو ما يفترض أن يجده!

وفجأة لمح أمامه شبح رجل لم يتبين هيئته يسير بعيداً؛ فأخذ يقترب منه بحذر تابعاً إياه إلى أن رآه يدخل منزل السيد هجرس!

عقد أبسل حاجبيه وراح يحث الخطى نحو منزل الرجل كي يعرف من هذا الغريب الذي رآه، ويبدو أن الليلة كلها حقاً ستكون غريبة حتى يأتي الفجر...!

٥

أصبح أبسل على عتبة باب منزل هجرس، ووضع أذنه على الباب يسترق السمع إلى ما وراءه؛ فسمع صوتاً يشبه ما سمعه منذ بعض الوقت وأثار هذا قلقه وريبته أكثر، وخشي على هجرس ففتح الباب بهدوء ودلف إلى الداخل...

كان المكان مظلماً جداً، اللهم إلا من شقوق في الجدران ونوافذ تسربت منها أضواء الشروق الأولى؛ وفي هذه اللحظة انتبه أبسل أنه فوت صلاة الفجر في ميعادها فشعر بضيق وقال هامساً يحدث نفسه: "إن لم يكن الأمر حقاً يستحق هذا العناء فسوف أفكر ملياً في أن أخيف أنا أهل القرية بطريقة ما، وأجعل من نفسي أسطورة تنافس هذا المستذئب!"

تقدم أبسل بهدوء وهو يركز بكل حواسه مع صوت الصراخ الذي يشبه العواء، وتتبعه إلى أن أصبح أمام باب خشبي، ثم نادى بصوت جهوري جاد: "سيد هجرس! ما الذي يحدث عندك بالضبط؟!"

فسمع ضحكات غريبة تأتي من خلف الباب أثارت مزيداً من القلق في نفسه، تلاها صوت متحشرج غريب يقول: "هل شفقتك على البناء المسكين جعلتك غبياً إلى هذه الدرجة يا أبسل؟! لقد خيبت ظني!"

وهنا تسمر أبسل في مكانه وبدأ يتصبب عرقاً إذ أنه فهم الأمر كله تقريباً، وقال بنبرة مترددة حاول أن يجعلها حازمة بعض الشيء: "الشعر الكثيف والمنزل المظلم وعودتك مع الفجر، وأن تأتي بصورته لتحذرني في البداية، أنت حقاً تركز جيداً مع التفاصيل أثناء تلبسك للرجل، أحييك!"

قهقه الصوت قهقهات شيطانية قبل أن يقول ساخراً: "نعم! هكذا يا أبسل العظيم! أَفِق!"

تلا أبسل سراً بضع آيات من القرآن واستجمع رباطة جأشه، ثم عاد يتابع الحديث مع من بالداخل سائلاً إياه بصوت واثق أكثر: "وما الذي تريده؟!"

=ليس بالشيء المهم، أردت اللعب معك وحسب!

-لديك أفكار رائعة بشأن اللعب!

=هه! كما ترى يا أبسل؛ القطرب لم يكن مشكلته الوحيدة على الإطلاق، بل كنت أنا مشكلته الكبرى إذ أنني دفعته داخل حلته الكاذبة تلك دفعاً!

-هذه علة في نفسه وأنت استغللتها!

=نعم؛ فصنعت أسطورة!

-أسطورة سَتُنسَى للأسف!

=لم أهدف إلى أن يتذكرها أحد!

-وإذن، ماذا تكون؟!

=أنت تعلم ماذا أكون يا أبسل، لكنني رغم ذلك سأنعش ذاكرتك...ربما أنعشها بالجميلة أريام وأنا أخرج ببطء ولذة من جسدها الفاتن الرائع...!

وهنا فتح أبسل عينيه عن آخرهما واحمر وجهه من غضبه الشديد، ودق بيده على الباب وهو يصرخ: "أنت! أيها الملعون! لقد أخرجتك بنفسي!"

عاد الصوت يقهقه وهو يرد: "نعم؛ أخرجتني ، ولكن لم يقل أحد منا أني قد لا أعود، إنك لم ترد وقتها إنهاء أمري تخفيفاً لألم جميلتك؛ وهأنتذا تدفع ثمن غلطتك!"

-لماذا تفعل ذلك؟! لماذا عدت؟! ولماذا هجرس؟!

=لأنتقم منك يا أبسل ومن قريتك المؤمنة تلك، واخترت هجرس لعلته، لأنني أدركت أني سأخلق منه رعباً لا يجعل الأمور آمنة كما كانت عليه! والحقيقة أنني أشعر أنه قد يكون سعيداً بطبيعته الحيوانية الجديدة!

-كيف لإنسان أن يفضل هيئة لا تعقل على هيئة كرمه الله بها؟!

=لا أدري، اسأل ربك!

-حسناً، لقد سمعتُ ما يكفي!

شحذ أبسل غضبه، واستجمع شجاعته وسحب سيفه من غمده، ثم ركل الباب بقوة واندفع إلى الداخل؛ فرأى هجرس العاري كثيف الشعر يقفز نحوه ليهاجمه؛ فقفز أبسل جانباً ليتفادى هجمته، ثم لوح بسيفه مهاجماً إياه فجرح ذراعه جرحاً سطحياً لكنه كان مؤلماً كفاية ليجعل الرجل يتقهقر إلى الوراء، وهنا أعاد ابسل سيفه بسرعة إلى مكانه واندفع نحو هجرس وجذبه من عنقه بيديه، ورفعه عن الأرض بقدر ما أوتي من قوة ثم دفعه بعنف نحو منضدة

خشبية في أحد أركان الغرفة، وأرخى نصف جسده العلوي عليها وهو لا يزال ممسكاً برقبته، ثم قال له بتحدٍّ: "هذه المرة سأتعلم من أخطائي!"

فرد الجني بتحد مماثل: "بالطبع ستفعل؛ وعنده سترتكب خطأً أكبر؛ فإنك لو قسوت في طردي هذه المرة ستتسبب بمقتل هذا الأحمق هجرس!"

تردد أبسل لبضع ثوان قبل أن يرد: "إنك لا تعلم هذا يقيناً!"

=إن ما أعلمه يقيناً هو أنه لو مات فسيطاردك الذنب!

-المهم أنك لن تطارد أحداً آخر!

=وماذا عن أريام؟ لِمَ نَجَت هي؟! أهذه العدالة التي علمك ربك إياها؟!

-كما قلت؛ هذه غلطة سأصححها!

=أنت تعلم أنك لست إلهاً لكن من الرائع أن أراك تظن نفسك واحداً؛ تقرر المصائر بالهوى، هذا يسعدني!

-فلتكن تلك آخر مرة تسعد فيها إذن، إني أقاتلك بكلام ربي وهداه، ولولاه ما تجرأت على الوقوف في وجهك، وهو أعلم بنيتي وقدر الرجل عنده مكتوب؛ لذا فإننا سنخوض الآن تجربة بسيطة لنرى فيها مدى صدق زعمك بأنه سيموت!

وضع أبسل يده على جبين هجرس وضغط بقوة، وبدأ يتلو من كتاب الله آيات يعرفها بعينها ويردد أذكاراً بصوت جهوري؛ فإذا بالأجواء تختلف وصراخ الجني يعلو ويزداد توحشه، وظل الحال هكذا لدقيقة قاوم الجني فيها الخروج وهو يقول مهدداً أبسل: "هذه المرة لن أكون

وحدي؛ إن رفاقي سيتربصون بك وسيشغلون بالك، وسيتخذون منك تسلية، ستختلف الأمور هذه المرة!"

لم يثر هذا في أبسل إلا قلقاً بسيطاً قاومه بسرعة، ولم يهدأ أو يتوقف عما يفعله إلى أن احترق الجني تماماً هذه المرة، لكن هجرس خائر القوى وقتئذ بدا أنه قد مات بالفعل!

تسمر أبسل في مكانه، وشعر أنه قد أخطأ فسأل عبثاً بنبرة مترددة وهو متيقن من موت الرجل: "هجرس؟ ألست حياً؟!"

ولم يأتِهِ رد فازداد قلقه وتسلط ذنبه، وكاد أن يذرف دمعة حارة قبل أن يسمع صيحة هجرس المفاجئة وهو يستعيد وعيه!

ضحك أبسل وصاح فرحاً وكان روحه عادت إليه بعد غياب دام لأقل من دقيقة ونصف: "حمداً لله على سلامتك يا سيدي الذئب! لا عواء بعد اليوم!"

نظر إليه هجرس بعينين مفتوحتين عن آخرهما وهو يسأله متعجباً وخائفاً: "سيد أبسل؟! ما الذي يحدث؟!"

-إنها قصة طويلة بعض الشيء يا رجل، سأقصها عليك لكني أودك أن تتماسك!

=هل الأمر سيء إلى هذه الدرجة؟!

-أخبرني أنت!

وحكى له أبسل كل شيء فكاد الرجل المسكين يفقد صوابه مما يسمع، وبكى بحرارة عندما انتهى أبسل من حكايته وهو يقول: "هذا سيء...بالطبع هو سيء جداً!"

ربت أبسل على كتفه مواسياً إياه ومحاولاً تهدئته وهو يقول: "اهدأ يا سيد هجرس، هذه علة في نفسك لا بد وأن لها علاجاً، أنت لم تفعل هذا قاصداً فلا تَلُم نفسك!"

رد هجرس بصوت متهدج باكٍ: "لكنني لن أسامح نفسي أبداً على ما فعلت يا سيد أبسل، لقد جئت أشكوك المستذئب وهو أنا...!"

-لم يكن هذا أنت يا رجل، هون على نفسك أرجوك، أنت رجل صالح وستظل دائماً، وسرك هذا لن أفضحه.

=لكن...ماذا لو...أصبحت الذئب مجدداً؟!

-سآتي إليك عما قريب وأتأكد أنك لن تفعل؛ سأعود فقط إلى منزلي لأقرأ أكثر وأرى ما يجب فعله، وأنهي لقائي بطلابي غداً وآتي إليك ثانيةً، أعدك.

=...أعلم أنك رجل صالح يا سيد أبسل، وصادق لا تخلف وعدك، أرجوك ألا تنساني!

-لن أفعل يا سيد هجرس، أرجو أن يذكرني الله، فقط ابق بعيداً عن الضوء الشديد لبعض الوقت، والآن علي أن أرحل لأقضي صلاة الفجر التي ضيعتها مغامرتنا الصغيرة تلك!

٦

بينما كان الصبية يخرجون بعد أن انتهى درسهم، وقد كست أمارات الرضا والسعادة كالعادة وجوههم، استوقف أبسلُ ثقيفاً الذي لاحظ على وجهه طوال الدرس ضيقاً لم يعهده منه، وسأله عما يزعجه فأجاب: "يبدو أنك لم تسمع الخبر يا سيدي، ويبدو أن كثيرين غيرك لم يسمعوه! إنه هجرس البناء؛ وجدوه وقد شنق نفسه صباح اليوم!"

ازدرد أبسل لعابه واهتز قلبه إثر الخبر، ووجد الكلمات تخذله وتتهرب منه وهو يحاول الرد على تلميذه؛ فاكتفى بأن تنهد بأسى وأحنى رأسه بحزن مما حذا بثقيف أن يسأله وقد ساوره القلق بشأن معلمه: "ماذا بك يا سيدي؟ ألست بخير؟!"

رفع أبسل رأسه وقال بنبرة حاول جعلها واثقة وملامح وجه حاول جعلها هادئة: "بل أنا بخير والحمد لله، حزنت فقط بشأن الرجل إذ أنه كان طيب القلب ودوداً، ولأننا نعلم أن الانتحار ذنب بشع لا نحب أن يفعله مؤمن، ومن يدري قدر الهم الذي حمله على هذا، و...أشعر أن لساني قد انعقد وحسب!"

=لا بأس يا سيدي، أظنني أفهمك كون الخبر عقد لساني أنا الآخر وجعلني أشعر بضيق وحزن شديدين...والآن علي الانصراف إذا سمحت لي.

=بالطبع يا بني، إلى لقائنا القريب.

خرج ثقيف وترك أبسل وحده يصارع أفكاره، ويشعر بضعفه وحماقته وذنبه العظيم؛ لربما كان عليه أن يبيت خارج منزله لليلة أخرى ويراقب الرجل، أو يأخذه حتى معه، أو...أمور كثيرة أخرى!

إنه حتى عندما بحث عن علاج فعلي لحالة هجرس بعدما عاد أمس إلى منزله مع الفجر استعصى الأمر عليه، لكن الذنب لا يزال ذنبه بشكل أو بآخر، أو على الأقل جزء من الذنب يخصه، هكذا حدث وأعاد الحديث على نفسه!

اغرورقت عيناه بالدموع وهو يقنع نفسه أن القدر قد ربه، وأخذ يستغفره كثيراً حتى تعب لسانه، وأخيراً تنهد بقوة وأسى شديد ثم قرر قرر الخروج والتمشي قليلاً في شوارع القرية؛ عل هذا يروح عن نفسه ولو قليلاً.

وبالفعل خرج أبسل من منزله وظل يسير ويتجول بلا هدف أو وجهة في الشوارع، وكانت أفكاره ما تزال تصارع عقله وسلامه بعنف وهو لا يملك شيئاً إلا أن يطلب الغفران من الله، إلى أن ألقت به قدماه في سوق البلدة، وهناك سمع صوتاً محبباً إلى قلبه يناديه؛ فالتفت ليرى صاحبه فإذا بأريام تقترب منه باسمة!

تهلل وجهه برؤيتها وشعر أن أحزانه قد رحلت عنه - مؤقتاً على الأقل - وسألها عما تفعل؛ فأجابته أنها تشتري بعض الحاجات للمنزل من والدتها، وأنها لمحته منذ بضع ثوان فتسللت وقد تركتها منشغلة وأتت لتراه.

تبادل الاثنان نظرات ذات معانٍ كثيرة يعرفانها - وتعرفونها - ثم وجد أبسل نفسه يقول فجأة وقد عادت أحداث الماضي وآلام الحاضر لتجثم على عقله: "أريام...أنا آسف لأنني أحببتكِ!"

عقدت أريام حاجبيها، وبدت لمحة من الضيق على وجهها وهي تسأله: "ما الذي قد يحملك على قول هذا؟!"

لم يرد؛ فقالت له بصوت حاولت أن تجعله حنوناً لتداري ضيقها مما قال: "أبسل، يا حبيبي، أرجوك أن تخبرني بما حدث، احكِ وتحدث إلي ولو باختصار!"

قص أبسل عليها كل ما كان منذ رسالته الأخيرة لها، وتجاهل ذكر أمر الجني؛ فأبدت دهشتها لما حكاه وحمدت الله على سلامته، ثم قالت له بعد أن تمالكت نفسها وشعرت بأنه لم يقصد حقاً ما قال منذ قليل: "أبسل، إن فعل الرجل حقاً يحزنني وما كنت أتمنى له أبداً مصيراً كهذا، أما عنك فإنني أعلم أنك تواجه ما لا يطيق أشجع الشجعان غيرك هنا مواجهته أو احتمال ثانية واحدة منه، وأوقن أنك تتألم بداخلك وتشعر بذنب فيما حدث - كعادتك - ولذا سأتجاهل ما قلته لي قبل قليل لأنه من الواضح أن التفكير قد شوش عقلك بعض الشيء، وسأخبرك أنني أراك قد حاولت ولم تنجح لأن الله قدر هذا وحسب، ولأن هذا لن يكون أول ابتلاء واختبار ومحنة لك في مسيرتك أود إخبارك أيضاً أنني لا أرى جدوى من أن تجعل الذنب يلتهم روحك ويعطلك عما تفعل؛ فالناس هنا بحاجة إليك يا أبسل حتى ولو أنكروا هذا، ويحتاجونك قوياً صافي الذهن والنفس؛ فطهر نفسك من حزنها ولا تتألم لأن الألم لا يسمن ولا يغني من جوع!"

ابتسم أبسل وقد هربت دمعة من إحدى عينيه وهو يشكرها ويثنى عليها ويخبرها أنها خير نعمة أنعم الله بها عليه في الدنيا بعد هدايته وتثبيته؛ فردت أريام بهيام وامتنان مماثلين: "لكم أود أن أضمك بين ذراعي وأقبل جبينك، وأخبرك كم أحبك وأقدرك، وأراك بطلي وفارسي وملهمي، وسأسعى أن يحدث هذا يا أبسل بقدر ما تستطيع لعلمي أنك تحتاجني لأهدئ من روعك، ومن حكمة الله أنه لم يجمع بيننا بعد؛ فيعطيك فرصة لتثبت له ولنفسك ولي أنك صلب وقوي بإيمانك، وإلى أن يأذن الله بأمره ويلين عقل والدي أرجوك أن تكون كذلك، وأعلم جيداً أنك ستكون لكني وددت قولها وحسب!"

أنهت حديثها، ثم أخبرته أنها ستعود إلى أمها سريعاً قبل أن تلاحظ غيابها أكثر من ذلك؛ فودعها أبسل مبتسماً وظل يراقبها إلى أن اختفت بين الحشود، ثم تنفس الصعداء وقد هدأت نفسه أكثر؛ فبدأ طريق عودته إلى المنزل.

وطوال الطريق أخذ يدعو الله أن يعجل بزواجه من أريام، ورغم أنه يمارس ما يمارسه من قبل أن يعرفها حتى إلا أنه يعلم أنها سبب الله في الأرض أنه لم يفقد صوابه إلى الآن، وقال لنفسه مبتسماً وهو يستحضر صورتها أمامه: "الإيمان والحب حقاً يقهران الأهوال، ما عاد بإمكاني أن أنكر ذلك!"

تمت بحمد الله

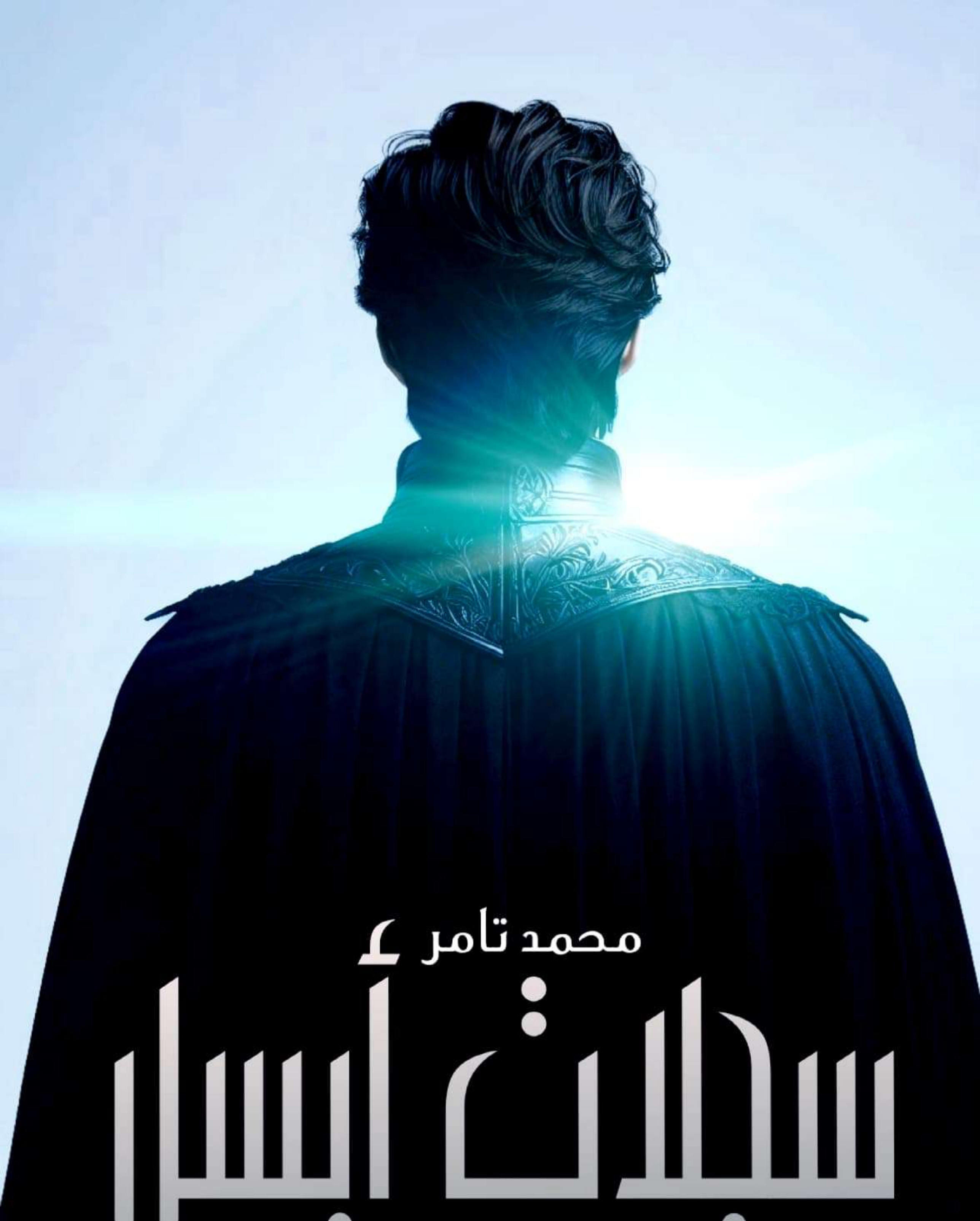

محمد تامر
سجلات أبسل
ABSAL'S CHRONICLES